الهوية العراقية في تراث الادباء اليهود مير بصري نموذجاً

أ. علاء عبد الرزاق مطلك الفهد

يعد مير بصري (١٩١١-٢٠٠٤) واحداً من ابرز الادباء الذين انجبتهم الطائفة اليهودية في العراق وكانت له اسهامات بارزة في مجال الاب شعراً ونثراً بالإضافة لنشاطه الاقتصادي عمل في العديد من الوظائف العامة والخاصة ما بين عامي(١٩٢٨-١٩٥٢) ، أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية وحضر العديد من المؤتمرات الدولية ، ممثلاً للعراق ، إلى أن انصرف للأعمال الحرة ولكتابة الأدب والتأريخ ، وعمل محرراً وباحثاً في الصحافة العراقية ، فصدرت لهُ أعمال معروفة ، من ديوان شعر بعنوان(الحرية ١٩٢٨) و(مباحث في الاقتصاد العراقي ١٩٤٨) و(رجال وظلال ١٩٥٥) و(رسالة الأديب العربي ١٩٦٩) و(إعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث١٩٨٣)و(أعلام السياسة في العراق الحديث ١٩٨٧) و (أعلام الكرد ١٩٩١)و(أغاني الحب والخلود١٩٩١) و(أعلام الأدب العراقي الأدب العراقي الحديث في جزأين١٩٩٤).

ارتبط مير بصري بعلاقة حميمة مع بغداد والعراق لامست شغاف قلبه وادرك الابعاد الانسانية للهوية العراقية فارتبط بعلاقات وطيدة مع مختلف الادباء والمفكرين من شتى الانتماءات الدينية والمذهبية ولم يكن إذا وازن بين يهوديته والعراق ليفضل سوى العراق لكنه اعمق وعيا من ان يرى تقاطعا بين يهوديته وولائه للإسلام كتب الشعر والمقالة والخاطرة والسيرة والاخوانيات ولعل اسماء كتبه خير شاهد على موسوعيته وخصوبته وتضلعه من اللغة العربية وعشقه لها.

ينطلق البحث من فرضية اساسية وهي ان الهوية العراقية الجامعة بقيت شاخصة وماثلة في النتاج الادبي الذي تركه مير بصري وللتدليل على صحة هذه الفرضية تم طرح جملة من الاسئلة الا وهي ما هو مفهوم الهوية العراقية لدى بصري وكيف عبر عن انتمائه لهذه الهوية وجمع بين موروثه الديني والاهتمام بالتراث العربي الاسلامي واللغة العربية حتى اصبح من اعلامها المشهورين في العراق.

سوف ينقسم البحث لمبحثين يتناول الاول النشأة الفكرية والعقائدية والادبية لمير بصري في حين يتناول المبحث الثاني الكيفية التي عبر فيها مير بصري عن هويته العراقية في نتاجه الادبي مع تناول ابرز مؤلفاته التي كانت تجسيدا لهذه الهوية الجامعة والمتنوعة.

النشأة الفكرية والعقائدية لمير بصري:

هو مير شلومو حاي بن شاؤول بن بصلئيل، المعروف بأسم بصري، بن عزرا بن يهوشع بن عوبديا بن اسحق حييم بن موشي بن ابراهيم بن نسيم. ولد في بغداد، يوم الثلاثاء الموافق التاسع عشر من أيلول عام ١٩١١ في دار العائلة الواقعة في محلة (تحت التكية) قرب سوق السراي، تلك الدار التي اشتراها والد جده (عزرا يهوشع عوبديا) عام ١٨٥٩، وبقي يسكنها حتى انتقل الى الاحياء الجديدة في شمالي بغداد عام ١٩٤٨ ينتمي مير بصري الى أسرة يهودية عرفت بادىء الامر بأسم (آل بصري) ثم اشتهرت بعد ذلك بأسم (عوبديا). وبعدها عادوا الى استخدام تسمية (آل بصري) في اواخر القرن التاسع عشر.

نشأ مير بصري نشأة علمية، واسعة الأفق، اذ ادخلته عائلته في صيف عام ١٩١٥، في كتاب المعلم (ابراهيم القصير)، في محلة (التوراة) في بغداد، ولم يتجاوز الرابعة من عمره. لكنه لم يستمر في الدوام سوى أيام معدودة. وفي خريف ذلك العام دخل مدرسة (التعاون الاهلية) في بغداد، لتلقي دروسه الابتدائية.١

تعلم في مرحلته الدراسية هذه علوم الطبيعيات والرياضيات والجغرافية، ومبادئ اللغة العبرية والتوراة. ودرس اللغة العربية على يد جواد محمود الأوقاتي، الذي زرع فيه حب الادب العربي. بعد أتمام دراسته الابتدائية، واصل دراسته الثانوية في مدرسة الاتحاد الاسرائيلي

(الاليانس) في خريف عام ١٩٢٢، وأخذ يجد فيها ويقضي ساعات طويلة في الدرس والمطالعة، حتى تخرج فيها عام ١٩٢٨. وكانت الهيئة التدريسية مؤلفة من مدرسين من ذوي الثقافة الجيدة بحكم تتبعهم الدراسي الطويل، وإتقانهم اللغات الاجنبية، وتوافر الكتب المطبوعة بمختلف اللغات. ومنهم الشيخ محمد صالح السهروردي، ويذكر مير بصري ان أخاه (صالح بصري) كان يرسل له من مصر بعض الكتب والمجلات، فاقتبس منها معلومات ووضع كتاباً بعنوان (تاريخ مصر الحديث) نسخه بخط يده وقدّمه الى الشيخ السهروردي. فاستحسنه واثنى على جهده في تأليفه. وقام بتدريسه الشيخ (عبد العزيز الشواف) و (محمود الوتري) الذي خلفه لمدة قصيرة الكاتب والصحفي والاديب (توفيق السمعاني) ولابد من ذكر الشاعر السوري محمد الفراتي الذي جاء الى بغداد هارباً من نقمة الفرنسيين، فاحتضنته مدرسة (الاليانس) وكلفته بالتدريس فيها. وكان محمد الفراتي يعتني بثقافة مير بصري ويرشده في مجال الشعر، ولما عرض عليه مير بصري باكورة شعره نبهه بإختلال وزن أشعاره واشار عليه بدراسة العروض. كما انه أفاد كثيراً من اتصاله بالمحقق واللغوي الاب انستاس ماري الكرملي، لتضلعه من اللغة العربية. ولازم بعد استكمال تعليمه اللغوي الاديب والمحقق مصطفى جواد لسنوات عدة فثقفه بفصيح اللغة العربية وتتلمذ في تاريخ العراق على يد المؤرخ عباس العزاوي.٢

كتب مير بصري والف في شتى المجالات الادبية والتاريخية والسياسية (اكثر من اربعين مؤلفا، بالعربية والانكليزية. بينها تراجم لأعلام الأدب العراقي الحديث، ولأعلام السياسة، وأعلام الكرد، وأعلام التركمان) وكانت له آراؤه السياسية والاجتماعية في التاريخ العراقي ومجرياته.

يغلب على مؤلفاته التراجم والتأريخ للرجال سواء في مجال السياسة او الأدب او الاعراق كما فعل في كتابيه: «اعلام الكرد» و«اعلام التركمان»!! ولكنه ابدع وتألق في كتابيه: «اعلام السياسة في العراق الحديث» و«اعلام الأدب في العراق الحديث» كذلك. اذ رسم عن السياسيين العراقيين، صورهم الفكرية – في الكتاب الاول – سياسياً ودبلوماسيا وعسكرياً وحربياً منذ الملكية الى عام ١٩٥٨,٣

ان مير بصري يتخطى حاجز السياسة الى الأدب وهو يؤرخ للسياسيين، ويتخطى سور الأدب وهو يتحدث عن رجال الأدب الى السياسة والقانون والتربية والثقافة. وبذلك وفي ذلك يبدع بقلم الاديب وبقلم الدبلوماسي او القانوني ان صح التعبير.

ولقد وصفه البعض من النقاد بان مير بصري ينفرد عن كل كتاب التراجم العرب بنقاء العبارة ورشاقة الاسلوب، وتوخي الايجاز غير المخل. ولا ابالغ اذا قلت انه يمتلك كل المواصفات التي يحملها العلماء، وهي الحيادية والتواضع والموضوعية.

وهناك ظاهرة الحسن في كتابة مير بصري اسلوباً وترجمةً وادراكاً لما وراء الشخصية العراقية التي يعرف بها او يترجم عن حياتها علمياً وعملياً ادبياً وفكرياً ثقافةً وانجازاً، فيأتي الحديث التأريخي والترجمة الحياتية غاية في الدقة والموضوعية والوضوح، فلا تكلف في السرد ولا خلل في الوصف ولا خروج في العبارة عن المعنى المقصود او الغاية المستهدفة. هذا التحسين الكتابي والتجميل التأليفي للشخصيات التي كتب هذا المؤلف عنها، هما من مبادئ وقيم المؤرخ، وتدلان – اضافة الى ذلك – على صفاء ونقاء فكره.٤

مفهوم الهوية والهوية العراقية

مفهوم الهوية :

يُعد لفظ الهوية في اللغة لفظاً صناعياً مركباً من ضمير المفرد المذكر "هو" والذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، والمعرف باداة التعريف"ال" ومن اللاحقة المتمثلة في ((ي))المشددة وعلامة التأنيث((ة)) والهوية هي حقيقة الشي أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وذلك منسوب الى هو.٥

والهوية في اللغة الانكليزية هي "Identity" ولها في المعاجم اللغوية الانكليزية أكثر من معنى إذ تعني حقيقة بقاء الشيء كما هو عليه وفي ظل أي ظروف مختلفة، وتعني أيضاً كينونة الذات أو الشيء، وتميز هذه الذات عن غيرها، وتعني ايضا الخاصية التي تجعل شخصاً ما معروفاً أو متعيناً أو حقيقة بقاء الشيء المعين ثابتة ومعروفة. كما تدل على التشابه التام في الطبيعة أو النوعية أو المماثلة التامة.

وتعني الهوية ايضا التماثل التام أو التشابه المطلق، كما ان كلمة "identify" تعني تعيين أو تأسيس الهوية عن طريق اثبات ان الشخص أو الشي المعين هو ما هو عليه والهوية في اللغة اللاتينية"identi"

تعني الشيء نفسه او الشيء الذي هو ما هو عليه، اي الطابع العام او الصفة المميزة لشيء أو شخص ما.

والهوية في اللغة الفرنسية تعني"Identite" وهي تدل على مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما شخص معروف أو معين. ٦

والهوية عند القدماء تدل على عدة معانٍ لعل ابرزها التشخيص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي، قالوا ما به الشيء هو"هو" باعتبار تحققه يسمى ذاتاً وباعتبار تشخصه يسمى هوية واذا أخذ أهم من هذا الاعتبار اضحى ماهية، وقالوا إن الامر المتعقل من حيث انه معقول في جواب ما هو" ماهية" ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الغير يسمى هوية، ومن حيث اللوازم يسمى ذاتاً. ٧

والهوية فلسفياً تطلق على العلاقة الفكرية التي ترفع كثرة المعاني في الموضوع فتردها إلى الوحدة في الاشارة مثلاً:" أ في علاقة مع ب معناها انه على الرغم من الاختلاف في التعبير بين أ وب فان المقصود بهما شيء واحد. وفي المنطق والرياضيات تدل الهوية على علاقة بين شيئين أو كميتين كل طرف فيهما يقوم برأسه، ويستخدم للدلالة على هذه العلاقة بالعلامة(=)س=ص وتعني س في هوية مع ص.

وتعني الهوية في الادراك الفلسفي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة الى الشجرة في الغيب المطلق لذلك قيل ان الاحق باسم الهوية " من كان وجود ذاته من نفسها، وهو المسمى واجب الوجود والمستلزم للتقدم والبقاء.٨

وقال ابو نصر الفارابي:" بان هوية الشيء، تعينه وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كل واحد، وقولنا انه "هو" اشارة الى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له والذي لا يقع فيه اشراك، ولقد عد الفارابي الهوية من جملة الموجودات وليست من جملة المقولات، فهي من العوارض اللازمة، وليست من اللواحق التي تكون بعد الماهية، وهناك من يرى ان الهوية هي الوجود المحض الصريح المستوعب لكل كمال وجودي وشهودي.

ولقد عنت الفلسفة اليونانية قديماً بالهوية وبمبدأ الهوية ووضع ارسطو للهوية ثلاث قوانين اساسية وعد بالإمكان رد قوانين الفكر الاساسية الى قانون واحد هو قانون الهوية فقانون عدم التناقض هو صورة سلبية لقانون الهوية، وقانون الثالث المرفوع صورة شرطية لقانون عدم التناقض، وقانون الذاتية صورة ايجابية للقوانين الثلاثة.

ولقد تناول عدد من الفلاسفة مفهوم الهوية الشخصية، والتي تعني ماهية الانا والذات وبقاء هذا الانا وهذه الذات على حالها من سنة لأخرى دون تحور أو تبدل، ولقد دار نقاش مستفيض حول مصدر الهوية –الذات فهل هو العقل أو المادة. واذا ما قلنا ان المادة هي مصدر الهوية كان ذلك بعيداً عن الحقيقة، ذلك ان كل خلية في الجسم في تغير مستمر، كما ان الهوية –الذات لا يمكن ان تكون في العقل ايضاً، ذلك ان مجموع العواطف والمشاعر والافكار التي تشكل الضمير تتغير بشكل ثابت ومستمر، كما ان الانسان لا يمكن ان يكون متماثلاً مع ذاته بالشكل الذي كان عليه قبل سنة مضت.٩

والهوية الشخصية تتحدد بناء على اسم الشخص وموقعه في المجتمع فضلا عن الوجود المادي المستمر والذاكرة الثابتة وهذا الوجود المادي الموضوعي يبنى على قاعدة التماثل والاستمرار لوجود الانسان كفرد ومقدرته على تمييز وادراك المواقف العقلانية والاخلاقية والتي في حالة مرور الانسان بها يشعر بذاته وبشكل حاد وعميق الامر الذي يتكون لديه وفي اعماق ذاته صوت يناديه بالقول" هذا هو أنا حقيقة".١٠

وتدل الهوية عند المحدثين عادة على اربع معانٍ وهذه المعاني هي:

١- يطلق اسم الهوية على الشيء من جهة ما هو واحد، كقولنا ان الشيخ الرئيس هو ابو علي بن سينا، وتسمى هذه الهوية بالهوية الفردية.

٢- يطلق لفظ الهوية على الشخص أو على الموجود المشبه بالشخص إذا ظل هذا الشخص ذاتاً واحدة رغم التغييرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده، ومنه قولنا هوية الانا، وهوية الفاعل، وتسمى هذه الهوية بالهوية الشخصية"Personal Identity"

٣- وتعد الهوية صفة لموضوعين من موضوعات الفكر على الرغم من اختلافهما في الزمان والمكان متشابهان في كيفيات واحدة، وتسمى هذه الهوية بالهوية الكيفية أو النوعية"Qualitive Identity" أو الهوية النوعية "Specific Identity".

٤- الهوية علاقة منطقية بين شيئين متحدين كالهوية الرياضية، والمساواة الجبرية والتي تظل صادقة رغم

اختلاف قيم الحروف والتي تتقوم منها كما في العلاقة الجبرية التالية:

(ب+ج)٢= ب٢+ج٢+٢ ب ج. ١١

ولقد بحثت جذور الهوية من لدن فلاسفة تجريبيين وعقلانيين مثل ديفيد هيوم وعمانوئيل كانت، وكان الاول قد استبعد اي تماثل مع الذات بشكل كامل، وقد فسر هذا الطرح بالقول بان جزءاً من العقل الواعي في لحظة ما يظل متماثلاً في اللحظة التالية كما يكون من السهل التوقع بان الذات الواحدة تخضع لعملية تغيير تدريجي بشكل اكبر من ذوات متعددة مع تشكيلات معقدة، ولقد اعتقد هيوم، بان النفس تمتلك مظهراً واحداً من الهوية الذاتية ويتكون هذا المظهر عن طريق تعاقب الصور والاحاسيس بشكلٍ الي وهذا التعاقب هو الذي ينشأ الفكرة.

وبالمقابل فان عمانوئيل كانت اعتقد بأن التماثل مع الذات يتم البحث عنه في مجال الضمير الفردي فهل إن تتابع الافكار والمشاعر والاحاسيس يحدث في الضمير بشكل متوالٍ او لا وقد بدا واضحاً ل ((كانت)) بانّ الشي في ذات نفسه(العقل المجرد) ذو علاقة بالعقل العملي وبحالات مختلفة.١٢

كما يطلق اصطلاح فلسفة الهوية على كل فلسفة لا تفرق بين المادة والروح وبصورة اخص على مذهب شيلينغ القائل بوحدة الطبيعة والفكر، لقد جعل شيلينغ من الهوية المطلقة جوهر العقل وماهيته، وتبعاً لذلك رأى ان الفلسفة لا يمكنها التخلص من المشاكل العويصة التي تتردى فيها إلا بالرجوع إلى مبدأ الهوية، ذلك ان جوهر الاشياء الاعمق هو الواحد، والكل الواحد يقوم على المعرفة الذاتية على وجه ادق وخارجها لايوجد شيء قابل لان يُعرف ولهذا ينتهي الى القول بان العقل والهوية المطلقة ليست فقط ماهيته بل هي صورته وقانونه، اي ان المطلق واحد، ماهية واحدة هي عينها، وهذا يعني انه امن بوحدة الذات والموضوع ووحدة الطبيعة والفكر ووحدة المثل الاعلى والواقع، ووحدة المادة والروح، ومبدأ الهوية لدى شيلينغ يقوم على ان الموجود هو ذاته، اي هو ما هو عليه، كما ان الهوية ايضاً هي التشخص وهي الحقيقة الجزئية، وقد تطلق على الذات الالهية فهوية الحق هي عينه. ١٣

ويصدق مبدأ الهوية على كل علاقة منطقية، كما انه المثل الاعلى للكم التحليلي،لان المحمول في هذا الحكم ليس جزءاً من مفهوم الموضوع وانما هو عين الموضوع نفسه، ومن مشتقات مبدأ الهوية مبدأ التناقض ومبدأ الثالث المرفوع، فاما مبدأ التناقض فيعني ان الشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً في ذات الوقت. واما مبدأ الثالث المرفوع فهو القول بأن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معاً، ولا تكذبان معاً.

كما تحدد الهوية كمفهوم اجتماعي على انها البعد المحلي أو الصبغة السائدة وهي طريقة الاداء المتوارث التي تحدد الخصوصية التي يتميز بها بلد ما وهو ما يمكن ان نوجزه في المنحى الخاص بطرح المشكلات والاستجابة لها وحلها مما يؤلف اخر الامر طابعاً مستمراً للفكر والسلوك والذي يميز شعباً ما عن شعب آخر، وبطبيعة الحال فان الصبغة الخاصة باي شعب قد صيغت بمقتضى مشروعات وانجازات متتابعة وذلك عن طريق البحث الدؤوب عن حلولٍ للمشكلات وحلها، مما يؤلف أخر الامر طابعاً مستمراً للفكر والسلوك كالقول مثلا بالنزعة التجريبية والبراغماتية في الفكر الانكلوسكسوني، أو النزعة المثالية والبحث في الميتافيزيقيا لدى الفلاسفة الالمان وعلى الرغم من ان هذه النزعات لا تستنفذ كل مواقف الفكر والسلوك عند كل امة لان هنالك تنوعات متعددة، فالهوية تعني وحدة الانتماء، ولكن هذا لا يعني التجانس، بل الوحدة في المتنوع، وكل ما يؤدي الى التقارب والالتقاء عند نقاط مشتركة. ولقد صاغت هذه الشعوب هذه الصبغة أو تلك الهوية الخاصة بها بمقتضى مشروعات وانجازات متتابعة وذلك عن طريق البحث الدؤوب عن حلول المشكلات ومواجهة التحديات، واختيار مواقف ساد بعضها دون البعض الاخر وليس من خلال هوية مفطورة معطاة من امدٍ بعيد ولد بها الانسان منذ البداية.

والهوية ايضاً عبارة عن منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية، وتنطوي على نسق عال من عمليات التكامل المعرفي وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية والتي تنطوي على إحساس بوحدة المشاعر الداخلية والتي تتمثل بوحدة العناصر المادية والتمايز والديمومة والجهد المركزي، وهذا يعني ان الهوية هي واحدة من العنصر المادية والنفسية المتكاملة، والتي تجعل الشخص يتمايز عن سواه ويشعر بوحدته الذاتية.١٤

وتتكون هوية الجماعة عبر عملية تمثل مستمر لتأريخها وبالتالي فان عملية التحول الثقافي واستحضار الماضي الجمعي وتجارب النجاح والفشل للجماعة، وسلوك ابطالها النموذجي عوامل تسهم في

بناء الهوية الثقافية للجماعة.١٥

ويمكن القول ان وجود الهوية يتجلى عن طريق الشعور الذاتي بوحدة الشخصية والشعور بالوحدة والاستمرارية الزمنية وكذلك الشعور بالمشاركة العاطفية والشعور بالاختلاف والشعور بالثقة الوجودية والشعور بالاستقلال والشعور بالمراقبة الذاتية والشهور بالتقدير والشعور بالاختلاف.

ان الهوية مؤلفة من انتماءات متعددة، ولكن لا بد من التأكيد على انها واحدة وان الانسان يعيشها معاً، فتتصارع الانتماءات في مجرى نهر واحد فتفرض على الشخص خياراته المصيرية، تحدد له العدو والصديق، الحق والباطل، الافضل والاسوأ، الميول والخيارات، فهوية الانسان ليست سلسلة من الانتماءات المستقلة، الهوية تعطي الافق والشكل لحياة الانسان، ولكن وفي أوقات الازمات العميقة يختزل انتماء واحد جميع مكونات الهوية وقد يتحول الانسان المنكسر بقدرة تجييش الهوية إلى وحش كاسر.١٦

الهوية العراقية:

لا يمكن بأي حال من الاحوال اختزال الهوية العراقية بعدها دلالة على التكوين المجتمعي والعقائدي والسياسي والفكري الذي انتجه العراقيون على مر العصور وصولا للعصر الحديث ببعد واحد فلا يمكن القول إن هذه الهوية كانت في يوم ما هوية عرقية ذلك ان العراقيين القدامى قد انفتحوا على شعوب وحضارات امم اخرى ولا يمكن القول انها هوية ذات بعد ديني فتاريخ العراق شهد تغيرا للدين الذي اعتنقته الدولة أكثر من مرة عبر التاريخ ولابد من التذكير بحقيقة اساسية وهي إن اسهام العراقيين في الحضارة الاسلامية لم يكن إسهاماً لطائفة أولفئة معينة، بل ساهم فيه جميع العراقيين من مختلف الاصول العرقية والدينية والمناطقية. يكفي القول ان اليهود و المسيحيين العراقيين قد لعبوا الدور الحاسم في نقل العقل الاسلامي الى المستوى العلمي والفلسفي من خلال ترجماتهم الفكرية من اللغة العبرية والسريانية العراقية بالإضافة الى اللغة اليونانية. ولنا أسماء لمبدعين كبار مثل ابن كمونة اليهودي و حنين بن اسحاق السرياني النسطوري وهو من مدينة الحيرة التي أضحت على بعد اميال قليلة من (النجف). ولا يمكن فصل الاسهام العراقي في الحضارة العربية الاسلامية عن الميراث الرافديني للعراق القديم المتراكم لحوالي أربعة آلاف عام، من سومر وبابل وأشور، بالإضافة الى الميراث الآرامي المسيحي الذي نشأ الإسلام العراقي مباشرة في أحضانه.١٧

وعلى الرغم من بدايات العلاقة بين اليهود وارض العراق كانت هي السبي الاشوري والبابلي والذي جاء على مرحلتين كانت الاولى على عهد الدولة الاشورية حينما قام الملك سنحاريب في العام ٦٩٧ قبل الميلاد بحملة عسكرية على مملكة اسرائيل فحطم هيكلها وشرد وسبى اهلها، والثانية على عهد الدولة البابلية الكلدية، حينما قام الملك نبوخذ نصر الثاني بالهجوم على اورشليم في العام ٥٨٦ قبل الميلاد ودمر هيكلها وسبى عددا كبيرا من سكانها واتى بهم إلى بابل حاضرة ملكه، الا ان اليهود شيئاً فشيئاً لم يعودوا يشعروا بأنهم اسارى في ارض العراق سيما وان الوصايا الدينية التي وردت في سفر ارميا النبي نبهتهم على الكيفية التي يتم التعامل بها مع ارض الاسر:" اطلبوا سلام البلد الذي أوعزت بنقلكم إليه أسرى، وصلوا إلى الله من أجله، ففي سلامه سلام لكم." ولقد عد بعض المؤرخين العراقيين إن تعاليم الديانة اليهودية قد خرجت من الفكر البابلي ففي بابل مارس اليهود شعائرهم الدينية، و واصل كهنتهم أعمالهم الدينية بتحرير فصول التوراة والتمهيد لتدوين التعاليم اليهودية والمعروفة باسم التلمود البابلي حتى قيل بان السبي البابلي كان عاملاً قوياً في تطوير الديانة اليهودية.١٨

واما في العصور الاسلامية فقد تراوحت معاملة اليهود في العراق بين التقيد بشروط الذمة من توفير الحماية لهم وحرية ممارسة الدين طقوساً وشعائراً وبين التضييق عليهم من فرض لباس خاص وتعاليم توحي بانهم مواطنون من الدرجة الثانية، وكان رئيسهم الديني يعرف باسم رأس الجالوت ويسميه المسلمون سيدنا ابن داود وذلك لان بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى النبي داود عليه السلام، وهو يستمد سلطانه من كتاب عهد يوجه اليه من الخليفة العباسي عملا بالشرع الاسلامي، وينتقل هذا المنصب الى ذريته بالوراثة، ولقد شكل يهود العراق وحدة متجانسة ومنسجمة ولم يسمح لهم بالتفكير بارض تسمى باض الميعاد فالعراق كان وطنهم لذا لم تجد الحركة الصهيونية قبولا يذكر في اوساط المثقفين من يهود العراق وحينما سئل ساسون حسقيل والذي كان نائبا في مجلس المبعوثان وشغل منصب أول وزير مالية عراقي عن

الصهيونية أجاب قائلا:" إن اللغة العبرية لغة دينية محضة ولا فائدة من اتخاذها لغة الكلام اليومية، وقد يمكن ان يكون هنالك مركز روحاني لليهود في فلسطين دون أن يكون هنالك أي نفوذ سياسي، وعلى هذا الاساس فقد أجاب ممثلي الطائفة اليهودية ارنولد ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام بالعراق حينما اخبرهم بفحوى وعد بلفور قائلين: "إن وطننا هذه البلاد والتي عشنا في ربوعها آلاف السنين، وعملنا بها، وتمتعنا بخيراتها، فاذا رأيتم ان تساعدوا هذه البلاد وتحيوا اقتصادها وتسندوا تجارتها وماليتها، فاننا نشارك في الرخاء العام".١٩

ولقد استقبل يهود العراق تأسيس الحكم الوطني وتولي الملك فيصل الاول بن الحسين بالترحاب ولقد خاطب الملك اليهود بالقول:" لا شيء في عرف الوطنية اسمه مسلم ومسيحي ويهودي، إني أطلب من ابناء وطني العراقيين الا يكونوا إلا عراقيين، لأننا نرجع إلى اورومة واحدة ودوحة واحدة، هي دوحة جدنا سام بن نوح، لذا فأننا منسوبون الى العنصر السامي، ولا فرق بين المسلم والمسيحي واليهودي".٢٠

تولى التاجر والاقتصادي اليهودي ساسون حسقيل منصبه كأول وزير للمالية، وبفضله أخذ العراق يسترجع واردات النفط بالباون الذهبي، بدلاً من العملة الورقية، بعد إصراره على هذه المعاملة في المفاوضات (١٩٢٥) مع الجانب البريطاني، رغم اعتراض أعضاء الوفد العراقي على ذلك. وقد قدر العراقيون، في ما بعد، أهمية هذا الموقف. إلا أن تدخل البريطانيين منع ساسون أن يكون وزيراً ثانية. وكان ساسون منظم أول ميزانية مالية في تاريخ العراق، وأول منظم لهيكل الضرائب على الأسس الحديثة.٢١

واجه يهود العراق ظروفا عصيبة بعد العام ١٩٤١ ومن ثم العام ١٩٤٨ أي في اعقاب ما عرف باسم حركة مايس والحرب العربية الاسرائيلية الاولى فقد واجهت منازلهم في بغداد ومحلاتهم سلبا ونهبا ومن ثم صدر قرار بإسقاط الجنسية العراقية عن عدد منهم ومن ثم إجراءات وممارسات قضت بمنح توظيفهم ودخول ابنائهم المدارس، ومطاردة شبابهم واختفائهم القسري، ولقد أكد مير بصري على وجود احداث مريعة تعرض لها وابناء الطائفة اليهودية من الذين حاولوا البقاء بالعراق حتى عقد السبعينات، واقد اشار مير بصري بعد الجمهورية العراقية الاول وهو عهد عبد الكريم قاسم بالتخفيف من آلام اليهود فقال:" إن العهد الذهبي للطائفة اليهودية الضئيلة المتبقية في العراق بعد الهجرة الجماعية لسنة ١٩٥٠-١٩٥١ كانت في عهد عبط الكريم قاسم فقد تمتع اليهود في ظل هذا العهد بكل حقوقهم المدنية والدينية والطائفية".٢٢

امن يهود العراق وفي طليعتهم مير بصري بان تهجير اليهود وتسفيرهم وسحب الجنسية العراقية عنهم كانت بمثابة المؤامرة التي دبرت واحبكت وساهمت فيها قوى أجنبية وصهيونية وعراقية.

نأتي هنا لنبحث عن الكيفية التي عبر بها مير بصري عن هويته العراقية، بداية وكما ذكرنا في تعريف الهوية فإنها تدل على التشخص والذات وكل ما يؤكد هذه الذات ويعزز وجودها فهي بذلك تستند على بعد مادي وبعد معنوي فأما البعد المادي فقد تجلى بإيمان مير بصري بان العراق هو الوطن النهائي لكل اليهود العراقيين وعلى هذا الاساس فقد شغلت حياته فكرة ترقية المجتمع العراقي والعمل من أجل نهضته الفكرية والسياسية والاقتصادية، لذا درس تاريخ العراق والمحطات التاريخية التي شكلت عامل التقاء بين مختلف مكوناته من يهودية ومسيحية واسلامية وسعى لتغليب عوامل الالتقاء والانسجام على عوامل الافتراق والاختلاف فنراه سعى لتحرير الدليل العراقي أي الدليل الذي يرمي لتعريف العراق وتاريخه وتاريخ حضاراته القديمة، وأهتم بتوثيق تاريخ الاعلام العراقيين في مختلف المجالات وكانت تربطه بمعظمهم صلات وثيقة وفي مثل هذا التوثيق للأعلام في السياسة والاقتصاد والادب وهم من مختلف المذاهب والاعراق دليل على تركيزه على ما ينمي الهوية العراقية ويشعر جميع العراقيين بانه مساهمين فعليين في بناء بلدهم، وقد ألّف ما لم يؤلفه غيره من المراجع والموسوعات وأهمها (أعلام العراق في القرن العشرين) لشخصيات من مختلف الأديان والمذاهب والفرق والقوميات في العراق ودامت كتابتها ما يقارب نصف قرن في جهد جبار لألف شخصية عراقية. وفيها أعلام اليقظة الفكرية في العراق وصدر عام ١٩٧١م، وأعلام السياسة عام ١٩٧٨ م، وأعلام اليهود في العراق عام ١٩٨٣م، وأعلام الكرد في العراق عام ١٩٩١ م، وأعلام الأدب في العراق عام ١٩٩٤ م وله ثلاثة أجزاء، ثم أعلام التركمان في العراق عام ١٩٩٦. وان يكون وهو اليهودي

امينا عاما لوزارة الخارجية فذلك يعني اضطلاعه بمهمة حيوية وخطيرة كانت عراقيته والكفاءة التي يتمتع بها لوحدها تؤهله لشغلها، كان يمتلك علاقات واسعة وقد خبر الفعاليات العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية والصحفية والمالية والاقتصادية والتجارية فضلا عن أخلاقه العالية.

وصف مير بصري نفسه قائلا بعد أن سئل عن عدم سبب هجرته لإسرائيل:" اني عراقي الهوية يهودي الدين عربي الثقافة"

له كتب عديدة أخرى منها تجارة العراق فى مائة عام، ستة كتب عن اقتصاد الدول العربية، أعلام الوطنية والقومية العربية، وديوان شعر بعنوان (الحرية) رجال وظلال، ورسالة الاديب العربي، نفوس ظامئة، بشر وآلهة، أرانين، مواكب العصر، رحلة العمر، رحلة نيهولت إلى العراق، علم الفلك عند الإفرنج فضلا عن مقدماته لكتب كثيرة أهمها (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ليوسف رزق الله غنيمة.٢٣

نشر آثاره الأدبية في الجرائد والمجلات العراقية واللبنانية والمصرية والسورية كذلك مقالاته الاقتصادية والاجتماعية وغيرها. عمل محررا اقتصاديا لجريدة (الإخاء الوطني) و(البلاد) وجريدة (الشعب) وتحرير جريدة (الدليل) الأسبوعية ورئاسة تحرير (مجلة غرفة تجارة بغداد الشهرية لمدة ثمان سنوات، كما ألقى في الإذاعة العراقية والتلفزيون العراقي وإذاعة الشرق الأدنى ولندن والهند مواضيع مختلفة في الاقتصاد والأدب والاجتماع وغيرها.

أعتقل ظلما مدة شهرين كاملين بلا أمر قضائي العام ١٩٦٩ ثم أخرج لحضور مؤتمر الأدباء العرب ببغداد، وقدم بحثا متميزا بعنوان (دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي المعاصر). وأما سجنه فيذكره ويقول

ايه يوما قضيته في السجون
في أسار من الونى والشجون
رسمته رؤى النوى والمنون
شاحبا مقفرا كليل الجنون

وقال أيضا

أي جرم جنيته في حياتي
لأجازى جزاء باغ وعات
أوقفوني مناضلا وثباتي
لعراقي و دجلتي وفراتي٢٤

ونراه وقد نسج حبه وعشقه لبغداد شعراً فقال:

على الأوطان في جبل وسهل
سلام الله ، عطر من سلام
بلادي حبها مددي وديني
تغلغل في الجوارح والعظام
هي الأم التي خلقت كياني
وجادت بالحشاشة والقوام
وأرهفت المشاعر في حنان
وأوقدت القريحة بالضرام
ولقَّنت المكارم والسجايا
واوحت بالخواطر والكلام
ونزهت الفؤاد من الدنايا
ورفَّعْتُ الضمير عن الملام
رضعت لبانها طفلاً صغيراً
وذقت نعيمها منذ الفطام
عببت من الهواء الطلق صفوا
ومن ماء الذ من المدام
وكحلت العيون بسحر حسن
تلألأ في الضياء وفي الظلام
فيا للحسن من بغـداد أضفى
على الوديان وشيا والآكام
مغانٍ قد صفا فيها شرابي
وراق العيش في عز المقام٢٥

هنا يفصل ابعاد هويته وانتمائه لبغداد والعراق فالعراق مدده ودينه وبالتالي فان عقيدته اليهودية لن تكون حائلا دون تأكيد انتمائه الماهوي للعراق وان حب العراق قد تغلغل فيه وفي مشاعره وجوارحه، فالعراق مدده ودينه وهو بمثابة الام التي أوجدت كيانه ونمت فيه كل مقومات الحياة والاستمرارية وفي ذلك الشرط الاساسي للهوية، ثم نمى العراق احساسه ومشاعره وعواطفه بعد أن غذاه طفلا يافعاً ثم زوده بالنعم فاستكمل هويته بالبعد المعنوي للهوية والذي ترادف مع البعد المادي، فهواء العراق وماءه معينه الذي لا ينضب والذي جعل عيشه فيه أي في بلده قاراً سعيداً هانئاً.

كان العراق بالنسبة لمير بصري أكبر بكثير من مجرد كونه مأوى لليهود عاشوا فيه بعد مرحلة السبي مضطرين، بل وطن تجلت فيه الابعاد الروحية والجمالية لبني اسرائيل والذي عاشوا في العراق قروناً سحيقة من القدم، ولم تكن مغادرته للعراق إلا اضطراراً لان العراق لم يعد عراقه الذي عرف ونشأ وتربى فيه، عراق تتكامل هويته بوجود جميع ابنائه المتأزرين والمتحابين والساعين لجعل خلافات الامس بمثابة دلائل لحاضر أكثر انسجاماً وتوافقاً بدلا عن كونها كوابح لنشوء تعايش مشترك، كان تمسكه بهويته العراقية قد لازمه حتى الرمق الاخير إذ أوصى بدفنه في بغداد، لقد ادرك مير بصري إن فهم الهوية العراقية لا يمكن أن يتجلى ببعد

واحد مهما كانت أهمية هذا البعد بل بدراسة وتعمق الموروثات التي ساهمت في صقل الهوية العراقية وصياغتها وهي موروثات تنتمي لأكثر من دين ومذهب، بمثل هذا الفهم يمكن أن تولد هوية عراقية عصرية أكثر انسجاماً واعمق روحانية.

الخاتمة والاستنتاجات

يعد الاديب الراحل مير بصري صورة عن الاديب والمثقف الموسوعي الذي لم يقصر همه ودراسته وحياته على بعد واحد وكان ادبه وعلمه مفتاحاً للولوج في عالم أكبر بكثير من عالم الطائفة الدينية المنغلقة فدرس القرآن الكريم وهو اليهودي وتعشق الفاظه وأنكب يدرس تاريخ العراق بما يمثله العراق من مركز حضاري وعلمي ومعرفي ساهمت فيه اقوام ومذاهب مختلفة فتجلت هويته العراقية بما كتب في مجال الاقتصاد وحينما دخل عالم السياسة سعى للحفاظ على مكانة العراق الدولية وسمعته إذ عمل في وزارة الخارجية وكان الاديب والشاعر الذي تغنى بتاريخ العراق ومكانته وسطر بتراجمه لعلماء العراق ورجالاته في مختلف صنوف المعرفة والعمل اهتمامه ففي كتابه اعلام السياسة في العراق الحديث أرخ لشخصيات سياسية عراقية، لعبت أدواراً محورية في تسيير دفة الحكم، والنهوض بالعراق في فترات من ماضيه، رغم ما شاب هذه الفترات من تقلبات الأحوال، وسخونة الأحداث وقيام الثورات، وما خالط كل ذلك من أخطاء وتعسفات وسلبيات، هذا بالإضافة إلى ما حملته الأوضاع الجديدة والوقائع المستحدثة، من جوانب إيجابية وإصلاحات وعطاءات، تمس كل مناحي الحياة وجميع طبقات المجتمع. كما صنف في كتابه اعلام الادب في العراق الحديث ابرز الادباء الذين ظهورا في القرن العشرين ومكانتهم الادبية ونتاجهم الادبي، وحينما يجمع اديب بين ترجمة الادباء والساسة ومن ثم يتناول الاعلام من الكرد والتركمان فانه بذلك يصوغ المبادئ الاساسية لهوية عراقية جامعة شاملة لا تؤمن بالإقصاء ولا التخوين كوسيلة للتعامل مع الاخر المختلف بل بالتعمق في دراسة تاريخ كل جماعة ونتاجها الفكري وصولا لقواسم مشتركة يكون فيها التعلق بالهوية العراقية بمثابة البوصلة التي يتوجه اليها الجميع من أجل بناء بلد مزقته الاحن والضغائن، ولعل ايمان مير بصري بهوية عراقية جامعة تمثل ضوءً تتلمس فيه الاجيال القادمة معالم وطن يبشر بمستقبلٍ أكثر تفاؤلاً يخلو من عقد الماضي وسلبيات الحاضر.

المصادر:

١.للتفصيل ينظر: مير بصري، رحلة العمر من ضفاف دجلة إلى وادي التيمس. ذكريات وخواطر. القدس. ١٩٩٢، ص:١٥-١٦

٢. انعام كجة جي المؤرخ والشاعر مير بصري يرحل وعينه على بغداد التي لم تفارقها روحه، جريدة المدى، بغداد، ٢١-٧-٢٠٠٧،ملحق جريدة المدى،ص:٤

٣.نفس المصدر السابق

٤. نفس المصدر السابق

٥.. المنجد في اللغة والاعلام،بيروت، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية،ص:٨٧٥

٦. Laurance Urdang, The Random House Dictionary of English Language, Allied Publishers, priute Limited, India, ١٩٧٧, p:٦٥٩

٧. Idiomatic and Syntactic English Dictionary, Macmillan Company, London, ١٩٥٧, pp:٦١٩-٦١٨

٨. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الجزء (٢)ن ١٩٧٩،ص:٥٢٩

٩. تفاصيل اكثر عن المفهوم الفلسفي للهوية، ينظر: حسن حنفي، الهوية، القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة،٢٠١٢، ص: ١٧-١٩

١٠. David Sills (Editor)), International Encyclopedia of Social Science, Volume, ٧, the Macmillan Co, New York, ١٩٧٢, p:٦١

١١.. جميل صليبا، مصدر سبق ذكره،ص:٥٣١

١٢..حول الطروحات الفلسفية الخاصة المتعلقة بالهوية عند ديفيد هيوم وعمانوئيل كانت، ينظر:

Encyclopedia of Americana, Volume(١٤), op.cit, pp:٥٩٩-٥٥٧

وينظر ايضا

Encyclopedia of Americana, Volume((١٦)), pp:٣٠٦-٣٠٤

١٣. جميل صليبا، مصدر سبق ذكره؛ ص:٥٣١

١٤. . اليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة:د. علي وطفة، دمشق،، دار الوسيم، ١٩٩٣، وينظر ايضا: علاء عبد الرزاق، أزمة الهوية في الفكر العربي المعاصر، بين الاصالة والمعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لكلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠٠١،ص:٢٠.

١٥.. اليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة: د. علي وطفة، مصدر سبق ذكره، ص:٦٧-٧٣

١٦. بدر الابراهيم ومحمد الصادق، الحراك الشيعي في السعودية، تسييس المذهب ومذهبة السياسة، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،٢٠١٣،ص:٢٤

١٧.علاء عبد الرزاق، الهوية والاندماج الاجتماعي في المجتمع العراقي، بحث منشور في المؤتمر السنوي لكلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية، بغداد، كانون الاول،٢٠١٤،ص:٥٤

١٨. نفس المصدر السابق،ص:٥٥

١٩.رشيد الخيون، الاديان والمذاهب في العراق، طهران، روح الامين،٢٠٠٤، ص:١٣٩

٢٠.نفس المصدر السابق،ص:١٤٠

٢١.انعام كجة كجي، مصدر سبق ذكره؛ ص: ٤

٢٢.رشيد الخيون، مصدر سبق ذكره؛ص:١٤٣.

٢٣. نبيل عبد الامير الربيعي، مير بصري الباحث والاقتصادي والاديب العراقي، الحوار المتمدن، العدد(٣٦٠٤)، الحادي عشر من كانون الثاني،٢٠١٢.

٢٤. يعقوب يوسف كورية، يهود العراق (تاريخهم، أحوالهم، هجرتهم)، بيروت، الاهلية للنشر، ١٩٩٨، ص:٦٧

٢٥. نفس المصدر السابق،ص:٦٨